مشروع إعداد نسخة إلكترونية
لحولية كلية اللغة العربية بالمنوفية
إعداد وتنفيذ
أ.د/ يوسف محمد فتحي عبد الوهاب
أستاذ ورئيس قسم الأدب والنقد في الكلية

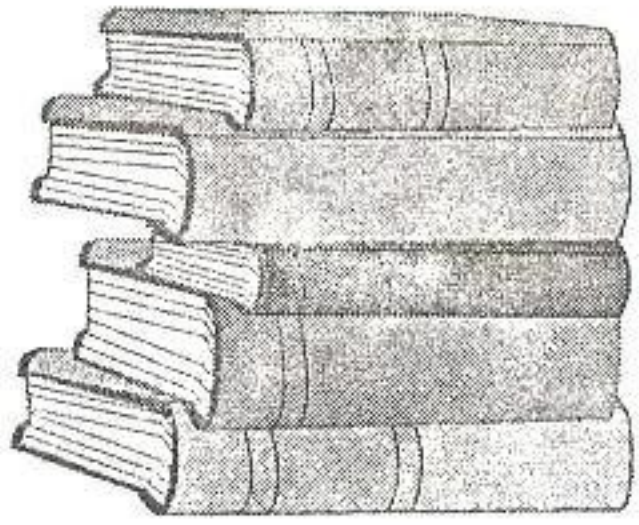

بلاغة الحوار
في سورة النمل

الأستاذ الدكتور

السيد محمد سلام

أستاذ مساعد البلاغة

(١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م)

حولية كلية اللغة العربية بالمنوفية، العدد الثامن عشر، مطبعة الأخوة الأشقاء ١٤٢١ هـ = ٢٠٠٠م

بسم ا لله الرحمن الرحيم

﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شئ قدير ﴾

وصلى ا لله وسلم على جميع رسلك وأنبيائك ومن تبعهم إلى يوم الدين

أما بعد :

فكل كلام له خصائصه ، وكل بيان له دقائقه ، وبناء الكلام على طريق الحوار ضرب كبير من ضروب البلاغة يمثل الواقع ، ويوضح الحجج والأدلة على صدق المراد أو كذبه ، ويجلى طباع النفوس .

وبذلك توضع كل كلمة فى موضعها الأخص الأشكل بها ، لأنها تصور دواخل قائليها ، واختلاف العبارات يحكى اختلاف الأحوال والمواقف ، فالطبع اللين المنقاد يمثله الحوار الذى اللين لا منازعة فيه ولا مخاصمة ، والطبع الغليظ يمثله البيان الشديد ، وذاك هو الفرق الذى يلمس بين قصة سليمان ، وقصة صالح ، ولوط (عليهم السلام) وهى القصص التى نسجت على طريق الحوار فى السورة الكريمة .

كذلك تجلى أن أسلوب الحوار يتحلى بالإيجاز فى القول فلا يسرد المشاهد تفصيلاً ، وإنما يستغنى ببعض المواقف عن بعض لوضوحها من خلال البيان ، كما نرى فى مواقف الهدهد بعد أن أبدى اعتذاره بالسلطان المبين وأرسله الملك بالكتاب إلى الملكة وقومها ، وقال له : ﴿ اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون ... ﴾ .

ففعل وعلم ما دار بينهم ، طوى السياق كل ذلك ، وانتقل إلى حكاية موقف الملكة ﴿ **قالت يا أيها الملأ إنى ألقى إلي كتاب كريم** ..... ﴾ .

وكذلك الشأن لما أرسلت إليه هدية ، وردها مصحوبة بالإنذار والوعيد ، طوى السياق عودة الرسل وقولهم وما اعتزموا عليه ، وانتقل إلى الحوار بشأن إتيان عرشها ..

وهكذا يجرى أسلوب الإيجاز بين القصص التى بنيت على طريق الحوار ، الذى قامت هذه الدراسة على تجلية خصائصه ، وكيف يشعر البيان فيه بالحركة ، كحوار النملة مع رعيتها ، حين خاطبت وأجابت ، كأنها سئلت ، وتبسم سليمان من قولها والبيان يوحى بالسؤال ماذا فعل سليمان ؟ وكيف تلقى النعمة الفريدة التى اختصه ا لله بها ؟ وحوار النفوس قائم فى الأساليب الأدبية .

وقد يكون حوارا ظاهرا بالقول كقوله : ﴿ **قال أحطت بما لم تحط به ....قال سننظر** ... ﴾ و ﴿ **قالت يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى** ..... **قالوا نحن أولوا قوة** .... ﴾ .

استهلت هذه الدراسة ببيان معنى الحوار وخصائصه فى الأسلوب القرآنى ، ثم تحدرت منه إلى بيان حوار النملة والهدهد ، وملكة سبأ ، غير غافلة خصائص الأسلوب فى كل موقف من هذه المواقف ، وغرض كل حوار ، والربط بين الأسلوب والموقف الذى يقصه والفرق بين الحوار فى قصة سليمان – عليه السلام – بمحتوياتها ، وقصة صالح ، ولوط – عليهما

السلام – مع قومهما ، مشيرة إلى مجيء قصتها فى غير هذه السورة ، وسر مجيء قصة لوط عقب قصة ثمود فى أكثر من سورة ، ثم العلاقة بين ختام هذه المواقف وختام السورة وبدايتها ، ومهمة أسلوب الحوار بين ذلك .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

فى غرة رمضان المعظم ١٤٢٠هـ .

تمهيد :

معنى الحوار وخصائصه فى الأسلوب القرآنى

الحوار عند علماء اللغة يقصد به مراجعة الكلام ، والمحاورة هى المجاوبة يقال : تحاوروا أى تراجعوا الكلام بينهم [١].

وقال ابن فارس : الحاء والواو والراء ثلاثة أصول ، أحدها لون والآخر الرجوع ، والثالث أن يدور الشىء دورا ..... أما الرجوع حار إذا رجع [٢].

والمراجعة فى الكلام تدل على علم به ، وهدفها الوصول إلى نتيجة مقنعة ، ينتظرها الطرفان دون منازعة أو معارضة ، ففيهما معنى الحسن القائم فى أصل المادة (حور) ، قال الزمخشرى : " وحاورته : راجعته الكلام وهو حسن الحوار " [٣].

فإن قام على المنازعة والمخاصمة ، ومحاولة المغالبة والتعصب دون دليل مقنع فهو جدال .

قال ابن فارس : الجيم والدال واللام أصل واحد وهو من باب استحكام الشىء فى استرسال يكون فيه ، وامتداد الخصومة ومراجعة الكلام [٤].

---

(١) ينظر القاموس المحيط (حور) .

(٢) ينظر مقاييس اللغة (حور) .

(٣) أساس البلاغة (حور) .

(٤) مقاييس اللغة (جدل) .

وقال بن منظور : هو اللدد فى الخصومة ، والقدرة عليها وقد جادله مجادلة وجدالا .. وجادلت الرجل فجدلته جدلا أى غلبته .. وجادله أى خاصمه [1].

والجدال يأتى فى الحق والباطل ، والمذموم منه كثير كقوله تعالى : ﴿ **ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا** ..... ﴾ غافر ٤ .

وقوله تعالى : ﴿ **وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق** ﴾ غافر ٥ .

وقوله تعالى : ﴿ **ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم** ﴾ وردت فى الحج ٣ ، ٨ ، ولقمان ٢٠ .

وكذلك الذى لا يفقه الدعوة الحقة ، أو يعرفها وينكر تكبرا وجحودا يكون حواره جدالا ، كشأن قوم نوح – عليه السلام – حين دعاهم إلى عبادة ا لله ، فقالوا له : ﴿ **ما نراك إلا بشرا مثلنا ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا** ..... ﴾ فأخذ يحاورهم ليثبت لهم الحقيقة ، ويؤكد لهم صدق مهمته ، فأصروا على عنادهم وباطلهم و ﴿ **قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين** ﴾ ينظر الآيات من سورة هود ٢٥ : ٣٢ .

أما خطاب الحق لحبيبه – صلى ا لله عليه وسلم – ﴿ **ادع إلي سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن** ..... ﴾ النحل١٢٥ .

---

(١) لسان العرب (جدل) .

ولم يقل حاورهم ؛ لأن موقفهم قائم على الجدال بالباطل فهم يجادلونه بغير علم ، أو بعناد وتكبر كما قال سبحانه : ﴿ **فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون** ﴾ .

فخاطبه بما عليه القوم ، مع وجود الفرق بينه وبينهم ، فجداله جدال محمود يتسم بالحسنى ويقوم عليها ، والمراد به هنا المحاجة أو ردهم عن غيهم بطريق الحجاج لا بالشدة لذلك قال بالتى هى أحسن .

أما جدالهم ففيه محاولة إلزامه بما هم عليه ، فهى مفاوضة على سبيل المنازعة من جانبهم .

وتلك تختلف عن المحاورة التى أسسها المراجعة مع المجاوبة ، والأصل فيها أن تقوم على العلم والبينة بالموضوع الذى يحدث فيه التحاور .

واجتمع الحوار مع الجدال فى قوله تعالى : ﴿ **قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلي الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير** ﴾ المجادلة ١ .

فهو صلى ا لله عليه وسلم يحاورها بناء على المتعارف بينهم حينئذ فيراجعها القول الذى تصر عليه ، وتريد مغالبة الرسول – صلى ا لله عليه وسلم – فيه ، لذلك جعل حديثها جدالا وحديثه حوارا ، حيث تجادله فى أمر معروف ، له قاعدة ثابتة عندهم ، وكان الظهار عندهم يوجب الفرقة المؤبدة ..... ولما لم تجد بدا من موقف الرسول – صلى ا لله عليه وسلم – فى قوله : "**ما أعلمك إلا قد حرمت عليه** " لجأت إلى ا لله وقالت : "**أشكو إلى**

الله فاقتى ووجدى " ولما أيقنت هى والرسول أن يكشف ا لله الكرب وكان يحاورها فى الأمر وهو مشفق عليها ، أشركهما الحق سبحانه وتعالى فى الخطاب بقوله : " تحاوركما " لأنها تنازلت عن إصرارها ومحاولتها رد الرسول الكريم إلى ما تريده ولجأت إلى من وسعت رحمته كل شئ فنزل الوحى يحسم الأمر ويفرج الهم ويزيل الكرب .

وكذلك سمى الموقف الذى دار بين الغنى المتبطر ، والفقير الصابر العالم بحقائق الأمور ، سمى حوارا ، وضربه ا لله مثلا فقال تعالى : ﴿ **واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا وفجرنا خلالهما نهرا وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا** ..... ﴾ تنظر الآيات من سورة الكهف ٣٢ : ٤٢ .

سماه القرآن حوارا لأنه عرض وإخبار لا منازعة فيه ولا مغالبة بين الطرفين ، فهذا يعرض ما عنده ، وذاك يعرض ما عنده ، الأول يتكلم عن غرور وبطر وترفع ، والآخر يرد بالتوجيه والمناصحة ﴿ **ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله** ..... ﴾ .

وختمت القصة ببيان ندمه على ما حدث منه ، مما يدل على أنه عرف الحق وأيقن به بوجود الدليل على نتيجة بطره وغروره فقال تعالى حاكيا الموقف : ﴿ **وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول يا ليتنى لم أشرك بربى أحدا** ﴾ .

فكانت النتيجة : الاقتناع عن رضا لا عن قهر حيث ثبت البيان بالدليل

لذلك سمى الموقف محاورة لا مجادلة .

بخلاف المواقف مع المشركين المعرضين الذين يجادلون وينازعون ولا ينتصحون فكان يقول ﴿ **وجادلهم** ﴾ ، و ﴿ **ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن** ..... ﴾ وهكذا ، لما فى مواقفهم من تعارض وتنازع لا يثمر ...

وقصة سليمان – عليه السلام – بمحتوياتها التى تقوم عليها الدراسة قائمة على الحوار لما فيها من النصح والإرشاد فى خطاب النملة لبنى جنسها وحوارها لهم دون منازعة ، أو معارضة لتوجيهاتها – كما سيأتى مفصلا – وحديث الهدهد ، وتثبت سيدنا سليمان – عليه السلام – منه وعدم الحكم عليه بالصدق أو الكذب ، إلا بعد النظر فى أمره ، وقد كان سليمان عالما حاكما ، لذلك " قال سننظر " .

وكذلك مواقف الملكة مع قومها كانت قائمة على الاستفتاء والتشاور وتبادل حسن الأدب دون منازعة أو معارضة .

ومواقف سليمان مع جنوده (بشأن الإتيان بالعرش) قائمة أيضا على الحوار الهادئ المثمر القائم على الدليل والبينة .....

وكل قصة من قصص القرآن يقوم فيها النظر بناء على ذلك ، فإن كانت فيها المخاصمة وإرادة المغالبة ، وكان كل واحد من الطرفين يحكم الحجة لصاحبه سمى جدالا تشبيها بجدل الحبل وإحكام فتله .

وإن كانت قائمة على السهولة واليسر والتثبيت والإقناع دون قصد المنازعة أو المغالبة فهى محاورة ، نلحظ فى بناء الكلام فيها السهولة واليسر

والأدب الرفيع والإيجاز فى البيان ، الذى به يـزداد الموقـف بسـطا ، والكـلام براعة وتمكنا .

وهذا ما أشار الإمام عبد القاهر فى مقدمة باب الحذف فقال : هو بـاب دقيق المسلك لطيف المأخذ عجيب الأمر شبيه بالسحر ، فـإنك تـرى بـه تـرك الذكر أفصح من الذكر والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ....[1]

وهذا ما وجدناه فى بناء قصة سيدنا سليمان بجميع مواقفها التـى قـامت عليها الدراسة ، بنيت على الإيجاز ، والحـوار لـه فيهـا أثـر بـارع ، مـع تمكـن الفواصل وتلاؤم العبارات وتناسق البيان دون تعقيد أو تعـارض فـى الـرأى أو تنـاقض فـى القـول ، لأن المحـاورة الهادفـة تقصـد الوصـول إلى الحقيقـة سـواء أكانت محاورة ظاهرة بلفظ " قال " أو قائمة فى النفس يفـترض فيهـا السـؤال ويعقبه الجواب وهو ضرب من الإيجاز تتضح به الأفكار القائمة فى النفـوس ، وتنكشف به أغراض الموقف بما فيـه مـن أمـر ونهـى وخـبر واسـتخبار وطبيعـة الحوار القرآنى – بلا ريب – تسمو على كل الحـوارات نظـرا لمـا يحملـه مـن أسلوب رفيع وبيان عال معجز بلفظه ونظمه وهذا ما هدفت الدراسة إلى بيانه مستعينة بحول ا لله وطوله ولا حول ولا قوة إلا با لله العلى العظيم .

﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعـد إذ هديتنـا وهـب لنـا من لدنـك رحمـة إنـك أنت الوهاب ﴾ .

---

(١) دلائل الاعجاز .

أولا : الحوار فى موقف

النملة – والهدهد – وملكة سبأ

نقف معه مرتين ، مرة بالإجمال ، وأخرى بالتفصيل .

أما الموقف الإجمالى فيكون كالتمهيد لبلاغة هذا الحوار وبيان أنواعه ، ثم يأتى الموقف التفصيلى الذى هو أس الدراسة ، وبيان ذلك كما يلى :

١- نظرات حول هذه المواقف

سورة النمل تشتمل على مقدمة وخاتمة يتعانقان فى إثبات الآيات والعبر الدالة على قدرة الله – عز وجل – وبينهما أربع قصص هى " قصة موسى – وقصة سليمان – وقصة صالح وقصة لوط " عليهم السلام .

وهذه القصص أو المشاهد المذكورة منها تثبت المعانى المرادة من موضوع السورة الرئيسى وهو إثبات الوحدانية ، وعلم الغيب لله وحده ، وبيان عاقبة المكذبين وعاقبة المؤمنين .

أشارت بدايات السورة إلى ذلك كما أشارت إليه نهايتها .

ففى مقدمة السورة ذكر شأن المؤمنين وغيرهم [1].

وفى الخاتمة قال سبحانه : ﴿ **من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون** ﴾ الآية ٨٩ ، ٩٠ .

---

(١) تنظر مقدمة السورة .

ولما كان الغرض هو بيان خصائص أساليب الحوار فى السورة لم تقف الدراسة عند آيات السورة كلها ، وإنما خصصت هذا اللون من ألوان البلاغة فيها أينما وجد .

فقد وجد فى موقف النملة الدال على حرصها على رعيتها ، ووراءه درس عظيم للإنسانية ، وحديث الهدهد الدال على أن عطاء الله ليس مقصورا على أحد دون أحد أو على أصفيائه فحسب .

ومواقف ملكة سبأ مع قومها بعد أن قرأت كتاب سليمان – عليه السلام – وإذعانها فى النهاية الدال على أن كلمة الله هى العليا .

ومواقف الجن من الإتيان بالعرش الدال على أن العلم والحكمة هما أساس القوة ، واختبار سليمان للملكة لإبراز بعض وجوه الإعجاز .

وفى موقف سيدنا صالح عليه السلام مع ثمود ، والملاطفة فى القول من جانبه شأن الأنبياء ، والفظاظة من جانبهم شأن الأقوام حين يرسل إليهم .

وكذلك الشأن مع لوط – عليه السلام – وقومه .....

وهاك تعريج حول مواقف سيدنا سليمان إجمالا تعقبه الدراسة البلاغية لأساليب الحوار فيها .

حوار النملة مع قومها

بعد أن بين الحق – سبحانه وتعالى – إقرار سيدنا سليمان – عليه السلام – بما أعطاه من العلم الذى اختصه به فى قوله سبحانه : ﴿ وورث

سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شئ إن هذا لهو الفضل المبين ﴾ الآية ١٦.

وأن سبب هذا الإقرار هو التشهير بنعمة الله والتنويه بعظمتها ، بين عز وجل ما أعطاه من سلطة وقوة تجاه ما سخره له من الجن والإنس والطير ، وأنهم تحركوا مترابطين متآزرين ، طوع أمره فقال جل شأنه :

﴿ وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون ﴾ الآية ١٧ .

ودلل بعدها مباشرة على أن هذه السلطة المعطاة ليست مقصورة على الإنس فقط أو الأنبياء فحسب ، بل هى بقدرته فى جميع خلقه فتلك نملة تقود أمة وتحرص عليها حرص الأنبياء على أممهم ، والناس على رعاياهم ، وقد أعطاها الله من العلم قدرا ، ومن المنازل منزلة وربط بينها وبين العلم الذى اختص به سليمان – عليه السلام – فهو يعرف منطق الطير وهى تشعر بقدومه ، وقوة جنوده ، وتقر بأنهم غير متجبرين لأنهم أتباع نبى .

﴿ حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ﴾ الآية ١٨ .

وهذا حوار معنوى ينجم من تفاعل الجمل وأثرها فى أداء المراد كأنها لما قالت – محذرة – ادخلوا مساكنكم ، سئلت عن سبب ذلك أو توقعت سؤالا فقالت لا يحطمنكم .

وهذا الجواب الناجم من الحوار النفسى من بالغ أساليب الاستئناف

البيانى ، الذى تكون الجملة الأولى فيه سببا فى وجود الثانية ، وكأنها أصل ينبعث منه فرع ، ولذلك فصلت عنها كما يفصل الجواب عن السؤال وتلك طبيعة أسلوب الحوار . وبلاغته هنا : تتجلى فى تنبيه السامع وإغنائه عن السؤال إشفاقا عليه .

ومعرفتها بأن القادم هو سليمان وجنوده كان أدعى إلى الاحتياط فى القول والأدب فى إبداء الأساليب حيث قالت : ﴿ **وهم لا يشعرون** ﴾ مؤثرة التعبير بـ ﴿ **يشعرون** ﴾ دون يعلمون أو يعرفون ، لأنها قصدت الإدراك بالحواس الظاهرة وهذا يتناسب مع صغر حجم النمل .

وموقف سليمان – عليه السلام – فى هذه الحالة يعد من الحوار المعنوى أيضا ، كأنه قيل فماذا فعل إزاء هذه النعمة الجليلة ، وهذه الخصوصية الكبيرة ، وهى سماع النملة ؟ فكان الجواب ﴿ **فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن اعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين** ﴾ الآية ١٩ .

هذا إيجاز فى القول وبلاغة فى التعبير ، وبناء الكلام على هذه الطريقة يحرك النفوس ويجعلها تتساءل تساؤلا يشعر بجلالة النعمة وقدرها وبذلك تتداعى الجوارح فى خضوع وخشوع وبناء على ذلك ينطق اللسان بما تريده الجوارح ﴿ **رب أوزعنى أن أشكر نعمتك** ..... ﴾ .

وهكذا تتفاعل العبارات فترسم حوارا لا يقل بلاغة عن الحوار القائم بين فريقين .

موقف الهدهد

بعد أن انتهى موقف الذلة والخضوع لله – عز وجل تجاه نعمته ، يعقب ذلك مباشرة موقف مضاد لهذه الحالة . فها هو نفسه الحريص على حسن رعيته وعلى سياسة أمورها وحسن إتباعها له ، يبتلى بموقف يجد فيه سلطانا بيده الأمر والنهى ، وهى أيضا نعمة عظيمة ولكن الأمر يتطلب أن يكون هذا شأنه .

فيسأل عن الهدهد سؤال متأن متفقد أحوال الجنود . قال تعالى : ﴿ **وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين** ﴾ الآية ٢٠ : ٢٦ فيها بيان موقفه .

توجه بالسؤال إلى ذات نفسه ، وحوار الإنسان نفسه دليل على قمة الحرص واليقظة ولما تبين له عدم وجوده حقيقة قال : ﴿ **أم كان من الغائبين** ﴾ ثم بدأ يتوعد ويهدد ﴿ **لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين** ﴾ وهو يعلم أن هذا الكلام سيصل إلى الهدهد ، ولابد أن يعلم بذلك حتى يبدى حجته إن كان لديه حجة ويحتم الأمر أن يكون القائد محيطا بشأن رعيته عارفا بلغتها المبينة عما فى نفسها ، فكأنه يحاوره حوار الغائب الحاضر ، أى الحاضر بعد علمه بما دار فى شأنه ، فكان جواب الهدهد بعد مكثه زمنا يسيرا – كما سيأتى – ﴿ **أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين** ﴾ .

ثم بدأ يقص الأخبار التى زعم أنه أحاط بها دون قائده ، مشوبة بتبرير

غيابه مع الحرص على إعلان الأمر الذى يهتم به سليمان ، وهو العقيدة ، فذكر عبادتهم لغير الله : ﴿ **إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شئ ولها عرش عظيم وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله** ﴾ .

مبينا تسويل الشيطان لهم : ﴿ **وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون** ﴾ ومنبها على أن تكون العبادة لمن يملك القدرة والعلم ﴿ **ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم** ﴾ .

* * *

وبعد كل هذا البيان الذى يدافع به عن نفسه ويرد على توعد النبى الملك ، يأتى جواب سليمان مشعرا إياه بسلطته وحكمته ، وأنه لم يقبل العذر بعد ، ولم ينته بذلك أمر الهدهد . ﴿ **قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين** ﴾ ثم نظر فى الأمر وكلفه بمهمة تحقق الأخبار المؤلمة التى جاء بها فى أمر العقيدة .....

وهذه المهمة تتكون من عدة أمور هى :

– حمل الكتاب الذى أعده لهم وإلقائه إليهم : ﴿ **اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم** ﴾ .

– تنحيه عنهم قليلا بحيث يسمع رجعهم أى حوارهم ثم يخبر بما حدث ﴿ **ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون** ﴾ الآية ٢٧ ، ٢٨ ، وقد فعل ، وطوى السياق ذلك للعلم به وعدم حاجة البيان إليه .

وقص القرآن رجعهم هذا ، وحوارها قومها حوار الضعيف أمام الأمر ، الذى لا يعلم ماذا يفعل حيث عبرت بقولها ﴿ **أفتونى** ﴾ و هذا يكون فى أمر غير معلوم لدى المتكلم .

وهذه بداية موقفها من الكتاب ﴿ **قالت يا أيها الملأ إنى ألقى إلي كتاب كريم إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا على وائتونى مسلمين** ﴾ فلما لم تسمع لهم رجعا ولا تعليقا ﴿ **قالت يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون** ﴾ أى تحضرون .

وهذا أمر قوى فتى يحتاج إلى قوة تدبير وحزم ودقة وهنا تجلى منزلة الملأ من قومها ، مستعطفة إياهم متحدثة عن اعتبارها لهم فى كل الأمور ...

فلما رأوا شدة حيرتها قابلوها بما يطمئن نفسها : ﴿ **قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد** ﴾ أى عندنا العدة والعتاد ، والقوة والبأس ومع ذلك نحن طوع أمرك ﴿ **والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين** ﴾ وهذا أدب فى الحوار يقابل سلوكها فى الطلب ، وقد سلكت مسلك اللين والاعتبار .

عرفت موقفهم ، ثم أدلت برأيها بأدب وخبرة بشئون الملك ، والسياسة نازعة نحو السلم مزمعة عن الحرب ﴿ **قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون** ..... ﴾ الآيات ٢٩ : ٣٥ .

وهذا أحسن تدبير أن ترسل إليهم هدية تليق بهم ، وذهب الرسل بالهدية ، وعلموا موقف سليمان واستنكاره هذا الأمر والتحدث بنعمة ا لله

عليه ، وأنه ليس ممن يهشون لهذه الأمور السفيهة التى غرضها الصرف عن الحق .....

﴿ أتمودنن بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ﴾ الآية ٢٦ : ٢٧ .

وبعد أن وصلهم هذا الوعيد والإنذار تأهبوا للطاعة والذهاب إليه طوعا....

وهنا انتهى حوار الملكة مع قومها ، وبدأ حوار الملك مع قومه بشأن الإتيان بالعرش .

﴿ قال يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين ﴾ .

أجابه عفريت من الجن : ﴿ أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ....﴾ فاستطال مدته ﴿ قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ﴾ .

وهذا حوار بين سليمان وبين العفريت على القول بأن عنده علم من الكتاب هو سليمان نفسه ، وسيتجلى ذلك بعد .

* * *

وكل هذه مراحل إعداد النعمة ، فلما انتهت توجه إلى بيانها وسببها ﴿ فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر .....﴾ الآيات ٤٠ : ٤٤ .

ثم حاور قومه حوارا موجزا بشأن استبيان نسبة الهدى عندها " قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون ..... الخ الآيات ..... ففعلوا وانتهى موقفه مع قومه .

وبدأ الحوار بينه وبين الملكة عيانا بعد أن كان بطريق المراسلة ، ولذلك عبر هذا بـ " جاء " " فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو ....." و " جاء " تقال – غالبا – فى الأعيان بخلاف " أتى " فتكون فى المعانى أو تتعلق بها وهى الغالبة عليها .

وهذا القيل إن لم يكن منه فهو من قبيله وبسببه وهو الآمر به ولما علمت بالحقيقة أقرت بمعرفتها بخصوصيات النبى ومعجزاته قبل الاختبار والإعجاز ﴿ **وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين** ﴾ .

تلبية لدعوتك ﴿ **ألا تعلوا على وائتونى مسلمين** ﴾ .

ثم وجه إليها اختبارا آخر يتجلى فى موضوع " الصرح " .

﴿ **قيل لها ادخلى الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير** ﴾ أى حين تهيأت للدخول أخبرها بحقيقته ، وهنا تركت سليمان وجنوده جانبا وتوجهت إلى ا لله – عز وجل – مقرة بظلمها لنفسها ومفصحة عن إسلامها لله رب العالمين مع سليمان ﴿ **قالت رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين** ﴾ .

وهذه نظرات سراع حول بناء المعنى فى الآيات يعقبه التحليل البلاغى لخصائص الحوار .

٣- بلاغة الحوار فى هذه المواقف

موقف النملة

جاء حديث القرآن عن موقف النملة بعد التمهيد يشتمل على عطاء الله لسيدنا سليمان – عليه السلام – مشركا معه أباه ومقدما له عليه ومحققا ذلك بـ " لام القسم وقد ، والتعبير بـ آتينا الدال على عظمة المؤتى ، واستقبالهما النعمة بالحمد ، وإقرارهما بالفضل المبين .

قال تعالى : ﴿ **ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شئ إن هذا لهو الفضل المبين** ﴾ الآيتان ١٥ : ١٦ .

وسر هذا التحقيق : الدلالة القاطعة على عظمة المعطى وعظمة العطاء ، وأثره فى تحقيق المعجزات التى وقعت بعد كلام النملة وسماعه إياه ، وحوار الهدهد وقصة الإتيان بالعرش ..... وأن ذلك كله تم بقدرة العليم الخبير ؛ ومن ثم قال " علمنا " بالبناء للمفعول تدليلا على خصوصية العطاء وأنه لا يكون إلا من الله لأنه علمه دلالة أصوات الطيور على ما فى إرادتها وخلجاتها ، ومن ثم التعبير بـ " منطق الطير " أى نطقه الذى يبين به عما فى نفسه .

وهذا أحد جنوده الذى جعله الله له سبيلا يهتدى به إلى تعرف أحوال عالمية ..... كما سيأتى فى موقف الهدد .

والسبب فى حديث النملة لقومها يتجلى فى جمع الجنود بقوة وغلبة تدل عليها كلمة " حشر " .

قال تعالى : ﴿ **وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون** ﴾ الآية ١٧ .

والحشر : إخراج الجماعة عن مقرهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب ونحوها [١].

وكذلك الترابط والتآزر وقمة الإذعان للأمر ، الذى يصوره قوله : ﴿ **فهم يوزعون** ﴾ ببناء الفعل على الاسم تصويرا لحالتهم كاملة ، وتحقيقا لأمرهم هذا لأن (الوزع الكف عما لا يراد فشمل الأمر والنهى أى فهم يؤمرون فيأتمرون ، وينهون فينتهون ، فقد سخر ا لله له الرعية كلها) [٢].

وهذا هو العطاء الذى نجم عنه هذا الإعجاز فى حوار النملة لقومها حرصا عليهم مبينة سبب ذلك ، مع الاحتياط فى التعبير ، وموقف النبى – عليه السلام – تجاه هذا الموقف :

قال تعالى : ﴿ **حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهو لا يشعرون فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك**

---

(١) المفردات للراغب (حشر) .

(٢) ينظر التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ١٩/٢٤٠ .

الصالحين ﴾ الآية ١٨ ، ١٩ .

هـذا النص يصور حركة الموكب حين تحرك تحركا يناسبه التعبير بـ (حشر) و (يوزعون) ، فهو جمع كثير مترابط منظم ، امتثالا لأمر قائده وعندما استشعرت النملة وصول الركب إلى واديهم نادت قومها .

ومن ثم بدأ الحوار الذى هو مراجعة القول – كما سبق – ولكنه هنا مراجعة خفية تهمس بها النفوس ، نقدره بقولنا : كأنه قيل لها لماذا هذا الأمر ﴿ ادخلوا مساكنكم ﴾ والمعتاد السؤال عن سبب الأمر والنهى وقد تكون سئلت صراحة ، ولكن القرآن أخفى السؤال تناسبا لحال النمل الذى يكاد يخفى على الناظر إلا بتأمل وتفقد ، ولأنها تقطن الأرض وتختفى فيها ، وهذا إيجاز علته بيان شأنها ، والسرعة فى تحقيق الأمر ، وأنه لا تمهل فيه من باب طاعة أولى الأمر ، وفيها عبرة للامتثال مادام فى الخير .....

وكذلك الشأن حين أجابت ﴿ لا يحطمنكم سليمان وجنوده ﴾ .

عللت ذلك بقولها ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أى لا يهلكونكم متعمدين ، لأنهم لا يرونكم عيانا ، وليس من طبعهم القتل بغير حق .

* * *

وهذا حوار فريد فى القرآن فلم يرد ، للنملة والنمل ذكر فى غير هذا الموقف ، شأنها شأن غيرها من الحشرات ، تحقيقا للعبرة .

يضرب المثل بالحشرات تجلية لقدرة الله – عز وجل – فى مواقف لا

تستدعى تفصيلا أكثر فى مواطن أخر ، فهى حلقة واحدة ، أو مشهد واحد يعطى عبرة فى موقف معين كما هنا .

وكذلك الشأن لو تأملنا ذكر البعوض ، وتتبعناه فى القرآن ، لم نجده غير مرة واحدة أيضا فى قوله تعالى : ﴿ **إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها** ﴾ البقرة ٢٦ .

والذباب فى قوله تعالى ﴿ **إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ...** ﴾ الحج ٧٣ .

والعنكبوت ﴿ **مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شئ وهو العزيز الحكيم وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون** ﴾ العنكبوت ٤١ : ٤٣ .

فهى أمثال يضربها ا لله للناس ولا يعقل سرها إلا العالمون ، وكل مثل يتناسب مع موقعه وسياقه .....

ودلالة موقف النملة هنا ، وهى ترقب حركة الجند المنظم والحشد الهائل يتناسب تمام التناسب مع موقف التسخير ، لسيدنا سليمان – عليه السلام – وكأنه جمع له أجل النعم وأعلاها شأنا فى زمانه ، نعمة التسخير ، وقوة الإدراك لموقف النملة ، هذا الذى يلقن الإنسانية درسا عظيما فى القيادة وأساليب السياسة ، وأخذ الحيطة والحذر ، وعدم إلقاء الأمور على عواهنها .

وهذا ضرب من الحكمة والفهم الذى أعطاه ا لله لسيدنا سليمان – عليه السلام – ﴿ **ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما** ﴾ الأنبياء ٧٩ .

وأعطاها للنملة إجلالا له ، حيث جاء التعقيب على ذكر النعمة ببيان تلقيها " فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك ...

وكلمة " أوزعنى " تتواءم مع هذا العطاء الجليل ، لأنها تؤدى معنى الجمع ، وانشراح الصدر وتهيؤ النفس لتشكر النعمة .

قال الراغب : ..... يقال أوزع ا لله فلانا إذا ألهمه الشكر ، وقيل من أوزع بالشيء إذا أولع به ، كأن ا لله تعالى يوزعه بشكره ..... وقيل معناه ألهمنى وتحقيقه أو لعنى ذلك ، واجعلنى بحيث أزع نفسى عن الكفران ...[1].

وقيل المراد : اجمع جوارحى كلها ومشاعرى ولسانى وجنانى وخلجاتى وكلماتى وعباراتى وأعمالى وتوجيهاتى ، وطاقاتى كلها أولها على آخرها .....[2].

وهذا يدل على رفعة شأن النعمة ومنزلتها ، فكما أن ا لله – عز وجل – وفق له هذه الجموع من الجن والإنس والطير وسخرها له ، فكذلك يجب عليه أن يسأل ا لله أن يوفق له جوارحه ، ومشاعره ، وطاقاته لتجمع كلها فى شكر النعمة ، وهكذا يجب أن تقابل نعم ا لله على عباده .

---

(١) المفردات (وزع) .

(٢) ينظر فى ظلال القرآن ٢٦٣٧/٥ .

خصائص بناء حوار النملة

بناء الحوار هنا على هذه الطريقة الخفية يناسب حياة النمل – كما سبق – ويناسب لغتهم التى لا نفقهها ولا نسمعها بخلاف الهدهد فإنه مسموع الصوت ، وإن كان غير معلوم البيان ، لذلك جاء الحوار معه صريحا بـ " قال سننظر " كما سيأتى بعد ، وعبارات بناء الكلام تصور الموقف ، فجملة ﴿ **حتى إذا أتو على واد النمل** ﴾ تدل على أنهم وصلوا الوادى ، لا أنهم قطعوه لأنهم لو كانوا فعلوا ذلك لما كان لقولها معنى ، ولكنها استشعرت عن بعد – بحكمة ا لله جلت قدرته – اقترابهم إلى الوادى ، فأمرت هذا الأمر ...

وفى اللحظة التى استشعرت فيها قدوم الجند وأمرت هذا الأمر " ادخلوا " استشعر سليمان أيضا بوحى من ا لله – عز وجل – قولها وكانت هذه ملامح الاستشعار ﴿ **فتبسم ضاحكا من قولها** ﴾ .

قال مقاتل :" وقد سمع – عليه السلام – قولها من ثلاثة أميال ، ويلزم على هذا أنها أحست بنزولهم من هذه المسافة " [1].

وتعدية (أتوا) بـ (على) يدل على أنهم أتوا إلى الوادى من أعلاه وحينئذ تنبهت النملة الرقيبة القائمة على أمورهم .....

وهذه أمة لها لغتها التى تتخاطب بها وتتفاهم ، وهذه خاصيتها ، لذلك

---

(١) ينظر روح المعانى للألوسى ١٩/١٧٦ .

قال سبحانه : ﴿ **ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾ الإسراء ٤٤ .

وهذا الذى لا نفقهه فقهه ا لله لسليمان – عليه السلام – ﴿ **ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا** ﴾ .

ومن ثم جاء التعبير بـ " قالت " القول الذى يناسبها .

وسمى لغتها قولا ، حيث تخاطب بحروف وأصوات من يفهمها ويطيع أمرها وخلق ا لله فيها هذا الإلهام بقدوم الجيش المكون من هذه الأصناف الثلاثة (الجن والإنس والطير) فقالت ﴿ **لا يحطمنكم سليمان وجنوده** ﴾ .

وخصوصية هذا النداء هنا تتجلى فى أنها أرادت التنبيه لأن النداء يهيئ النفس لقبول الأمر الذى يهدف هنا إلى النصح والإرشاد .

قال بعض العلماء : وقد اشتمل هذا القول منها على أحد عشر نوعا من البلاغة :

أولها : النداء بـ " يا " .

وثانيها : كنت بـ " أى " .

وثالثها : نبهت بـ " ها " التنبيه .

ورابعها : سمت بقولها " النمل " .

وخامسها : أمرت بقولها " ادخلوا " .

وسادسها : نصت بقولها " مساكنكم " .

وسابعها : حذرت بقولها " لا يحطمنكم " .

وثامنها : خصصت بقولها " سليمان " .

وتاسعها : عممت بقولها " وجنوده " .

وعاشرها : أشارت بقولها " وهم " .

وحادى عاشرها : عذرت بقولها " لا يشعرون " [1].

هذه الخصائص يستنبط منها قمة الحرص على الرعية وتقديم النداء على الأمر يوحى بخطورة الأمر وبه تحسن الاستجابة ، ويقوى جانب التحذير ، ومجىء الأمر بصيغته " ادخلوا " فيه معنى الإسراع فى التنفيذ ، والتنصيص بقولها " مساكنكم " يدل على أن لهم مساكن ومجالات للمعيشة ﴿ **وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم** ﴾ الأنعام ٣٨ .

ثم أعادت هذا التحذير بصورة أخرى تعليلا له فقالت " لا يحطمنكم .... " بطريق النهى الذى هو نهى لهم عن البروز ، فى صورة نهيه وهو أبلغ من التصريح بنهيهم لأن من نهى كبيرا عن شئ كان لغيره أشد نهيا [2].

والنهى عن حطم سليمان إياهن كناية عن نهيهن عن التسبب فيه وإهماله والحذر منه . كما يقال (لا أعرفنك تفعل كذا) أى لا تفعله

---

(١) الفتوحات الإلهية ٣/٣٠٥ .

(٢) ينظر نظم الدرر للبقاعى ٥/٤١٦ .

فأعرفك بفعله ، والنون توكيد للنهى [1].

وهذا فيه دعوة إلى بيان حق الطريق وعدم الإلقاء فى التهلكة .

أما قولها ﴿ **وهم لا يشعرون** ﴾ فهو تنبيه بعذرهم وتنويه برأفتهم ، وشهادة برحمتهم وهم مع نبيهم .

وهذه عدالة فى الحكم ، وشهادة بحق ، لذلك قال بعض العلماء : وسمته وجنده بالصلاح والرأفة وأنهم لا يقتلون ما فيه روح لغير مصلحة [2].

وكأنها ألهمت الحكمة التى تتعامل بها مع ذويها إجلالا لسليمان عليه السلام حتى لا تجور فى حقه ، أو تظلم جنده ولما تبسم عليه سرورا بالنعمة ، أسرع فى إحكام زمام عقله حتى لا يغتر بها ولجأ إلى ا لله أن يوفقه لشكرها ومن شكر النعمة فقد قيدها ، وازدادت درجة التقرب والخشية بازدياد النعمة حتى طلب أن يكون فى عداد الصالحين مع أنه نبى ، لأن الخشية من ا لله تكون من أعلم الناس به .

﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ فاطر ٢٨ .

وهذا شأن القدوة كما قال سبحانه ﴿ **أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده** ..... ﴾ الأنعام ٩٠ .

---

(١) ينظر التحرير والتنوير ١٩/٢٤٢.

(٢) السابق ٣/٢٤٣ .

٣- الحوار في مواقف الهدهد

الموقف الأول : موقف الاعتذار

جاء هذا الاعتذار بعد حوار دار بين سيدنا سليمان - عليه السلام - وبين نفسه ، حين تفقد الطير فلم ير الهدهد فسأل عن صحة ما لاح له :

﴿ **وتفقد الطير فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين** ﴾ الآية ٢٠ .

أى ما الأمر الذى كان لى فلم أره ، فلما تبين له أنه غائب فعلا أضرب عن هذا الاستخبار فقال ﴿ **أم كان من الغائبين** ﴾ و " أم " هذه منقطعة بمعنى بل والهمزة ، أى بل أكان من الغائبين .

وهذا أمر ملفت للنظر ، لأنه لم يتوقع غياب أحد الجنود بغير علمه ، ومن ثم كان التهديد والتوعد الذى ينزله به إصلاحا له إن كان يرجى إصلاحه ، أو إعداما خشية بث الفساد بين الجنود ، أو الإتيان بالسلطان المبين الذى يبرر غيابه جمع سليمان ذلك فى قوله :

﴿ **لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتين بسلطان مبين** ﴾ الآية ٢١ .

كان ذلك هو سبب الاعتذار الطويل المشتمل على عدة مبررات ، أطال الهدهد فى بيانها وتفصيلها .

قال تعالى : ﴿ **فمكث غير بعيد فقال : أحطت بما لم تحط به**

وجئتك من سبأ بنبأ يقين إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شئ ولها عرش عظيم وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السماوات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ﴾ الآيات ٢٢ : ٢٧ .

أطال الهدهد فى بيان حجته ، وأخذ يشرح شأن هؤلاء القوم الذين جاء بنبئهم وبين السبب فى هذا الذى وقعوا فيه ، وبيان الأحرى بالسجود والتعظيم معللا ذلك بتعليلات سديدة عسى أن يلقى عذره قبولا لدى الملك ولكنه لم يجد قبول عذره عن أول وهله ، بل وضع موضع الذل والخزى حتى يتم التيقن من أمره وخبره .

ومن هنا نجد أن حوار الهدهد قائم على هذا الاعتذار البالغ لأنه يريد الإتيان بالسلطان المبين الذى يحول بينه وبين التعذيب أو الذبح .

ويأتى بعده رد سيدنا سليمان – عليه السلام – ﴿ **قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين** ﴾ ليتجلى الموقف الأول فى الحوار الذى كان سببه الغياب بغير إذن .

* * *

وهذا الحوار فى موقف الهدهد لا نظير له فى القرآن الكريم فلم يرد للهدهد ذكر فى غير هذه الآيات ، وإن ورد ذكر الطير عموما فى مواقف كثيرة ، إلا أن المقصود هنا موقف واحد معين وهو الهدهد ، له مهمة بين

الجند ، وله وظيفة لا يقوم بها غيره ، لذلك جاء التعبير بما فيه معنى التفعل " وتفقد " الدال على الاهتمام بالأمر والحاجة إليه ، وأن وظيفته معطلة ، كما يدل هذا التعبير على تعهده بالرعية المسخرة له وشدة حرصه عليها .

قال الراغب : " والتفقد " : التعهد ، لكن حقيقة التفقد : تعرف فقدان الشيء [1]. فهو تفقده ليعرف أين هو ، وهذا التعبير من خصوصيات هذا الموقف أيضا فلم يرد فى غيره فى القرآن الكريم .

وكذلك الشأن فى قوله سبحانه ﴿ **فمكث غير بعيد** ﴾ ، فقد ورد التعبير بمادة (م ك ث) بالماضى كما هنا ، وبالمضارع كقوله تعالى : ﴿ **وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض** ﴾ الرعد ١٧ .

وبالأمر كقوله سبحانه حكاية عن سيدنا موسى – عليه السلام – ﴿ **فقال لأهله امكثوا** ﴾ طه ١٠ .

واسم الفاعل كقوله تعالى : ﴿ **ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون** ﴾ الزخرف ٧٧ .

وبالمصدر كقوله تعالى : ﴿ **وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث** ..... ﴾ الإسراء ١٠٦ .

ورد التعبير بهذه المادة (مكث) كما رأينا فى هذه الشواهد ، ولكنها لم توصف بقوله : (غير بعيد) فى غير هذا الموقف لأن البيان يستدعيها ،

---

(١) المفردات (فقد) .

ففيها دلالة على إسراعه ومكثه زمنا يسيرا خوفا من سليمان – عليه السلام – وهذا التعبير من خصوصيات الموقف .

وليعلم كيف كان الطير مسخرا له ، ولبيان ما أعطى من المعجزة الدالة على نبوته ، وعلى قدرة الله تعالى [1].

كما أن التعبير بـ (مكث) هنا يدل على ثباته فى بيان الحجة ، قال الراغب : " المكث : ثبات مع انتظار " [2].

ومن ثم عقب على القول ليدل على عدم طول الزمن ، والثبات فى إلقاء الحجة ﴿ **فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين** ﴾ .

هذا تمهيد لبيان العذر ، ولكنه فيه تجرؤ فى القول يحمل على الإنصات والاعتبار ، وهو دليل على تيقنه مما أتى به ، لأن التعبير بـ (أحطت) يوحى بقوة إدراكه ، ومعرفته الخبر من جميع جهاته .

وقال : ﴿ **بما لم تحط به** ﴾ لبيان أن معه السلطان المبين الذى لم يكن يتوقعه من أحد جنوده ، وكأنه لما علم بغضب الملك أراد أن يلفته إلى أن معه ما لا يعرفه فيتطلع إليه ويتهيأ لتلقيه ..... وهذا إلهام من الله لهذا الجند المسخر ، وابتلاء للنبى الملك فى علمه ، تنبيها على أن فى أضعف الخلق من أحاط علما ، بما لم يحط به ليتصاغر إليه علمه ، ويكون لطفا له فى ترك

---

(١) ينظر الكشاف ١٤٣/٣ .

(٢) المفردات (مكث) .

الإعجاب الذى هو فتنة العلمـاء[1] وهـذا هـو منـاط العـبرة والعظـة ، ودليـل الإعجاز .

أمـا قولـه :﴿ **وجئتك من سبأ بنبأ يقين** ﴾ فهـو تجليـة لمكـان الخـبر ، وإذعان بالسؤال عنه ، ولذا عبر بـ " النبأ " لبيان أنه خبر عظيم جدير بالمعرفـة والنظر ، فكأنه قيل : وما هو ، على طريقـة الحـوار المعنـوى الـذى توحـى بـه العبارات تصويرا للنفوس .

فقـال : ﴿ **إنـى وجـدت امـرأة تملكهم وأوتيـت من كـل شـىء ولهـا عرش عظيم** .... ﴾ الخ الأبيات .

وقال : " وجدت " لتيقنه من الرؤية ودقة معرفة الخبر ، كمـا قـال قبـل ذلك " أحطت " .

وعبر بـ " امرأة " دون ملكة ، مع معرفته بما لها مـن ملـك وسـيادة بـين قومها ، وعرش عظيم ، كما وصفه لبيان دهشته بما رأى ، إذ لم يكـن معهـودا فى بنى إسرائيل أن تكون المرأة ملكا ، كما حكاه العلماء .

وفيه أيضا إجلال للملك النبى الذى يخاطبه بهـذا البيـان ، وإشـعار بأنـه هو الملك وأنه أى الهدهد لا يعترف بها ملكة فقال (امرأة) ، وأنه يقف منهـا ومن قومها موقف الناقد ، البصير بصحة العقيدة ، ومن ثـم عـبر بـ السـجود عن العبادة لأنه أخص خصائصها وبه تعلو درجة القرب من الله عز وجل .

---

(١) ينظر الكشاف ١٤٣/٣ .

وأسند تزيين القبيح حسنا عندهم إلى الشيطان وهذا دليل على إتباعه .

وهو سبب فى عدم هدايتهم ، قال ﴿ **فهم لا يهتدون** ﴾ وبناء الفعل على الاسم فيه من تقوية الخبر ما فيه . لأن تقديم المسند إليه على الخبر الفعلى يفيد التقوية والتوكيد ، وغرضه هنا : الرغبة فى امتناع المخاطب وتثبيت المراد فى نفسه .

فقد أراد الهدهد بيان حالهم حينئذ وتزيين الشيطان لهم ، ولو جاء التعبير ﴿ **فلا يهتدون** ﴾ لما أدى المراد .

ثم ختم بيانه بأن السجود لا يكون إلا لله المتصف بالقدرة والعلم ، ثم طامن الملك من عظمته الإنسانية أمام العظمة الإلهية ، حضا على قبول العذر وصرفا عن التفكير فى العقاب ﴿ **الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم** ﴾ وفى الوقت نفسه يعرض بالملكة وأن عرشها عظيم بالنسبة لأبناء جنسها ، وأنه لا يضاهى شيئا أمام عرش الله العظيم بالنسبة لسائر ما خلق من السموات والأرض [1].

وهذا نص بيان الهدهد وخبره اليقين الذى أخبر بأنه أحاط به ، جعله الله مثلا لسليمان – عليه السلام – كما جعل علم الخضر مثلا لموسى – عليه السلام – لئلا يغتر بانتهاء الأمر إلى ما بلغه هو .

ومعرفة أحوال الممالك والأمم من أهم ما يعنى به ملوك الصلاح

---

(١) ينظر الكشاف ٣/١٤٥ .

ليكونوا على استعداد . بما يفاجئهم من تلقائها [1]. فيكونون على معرفة بأخبار الناس من حولهم ، وهكذا شأن الملوك .

وهذا يستدعى من سيدنا سليمان – عليه السلام – النظر فى الأمر ودراسته بدقة وعناية ، ولذا كان جوابه للهدهد : ﴿ **قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين** ﴾ . أى المتوغلين فى الكذب الممارسين إياه ، قال ذلك ليظل الخوف متغلبا على الهدهد الذى يكابد فى الدفاع عن نفسه .

وقوله : ﴿ **أم كنت من الكاذبين** ﴾ تمهيد للقيام بالمهمة التى يكلفه بها خير قيام ، والقصة مبنية على الإيجاز كما لا يخفى ، وهنا يأتى الموقف الثانى من مواقف الهدهد .

الموقف الثانى : موقف التكليف

نظر سيدنا سليمان فى الأمر ، وأعد كتابا موجزا لهذه الملكة وقومها يتضمن الأمر والنهى ، وأمر الهدهد بإلقائه إليهم وتنحيه عنهم قليلا بحيث يسمع حوارهم وموقفهم ، وأن يعود فيخبره الخبر ، وقد فعل وطوى السياق ذكره ..... حكى القرآن هذا الموقف بإيجاز بالغ الدقة والشمول .

قال تعالى : ﴿ **اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون قالت يا أيها الملأ إنى ألقى إلي كتاب كريم إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا على وائتونى مسلمين** ﴾ الآية ٢٨ : ٣١ .

---

(١) ينظر التحرير والتنوير ١٩/٢٤٩ .

هذا هو الكتاب الذى حمله الهدهد بطريقته ، وألقاه إليهم كما أمره ، لأنه خطاب شامل لمن يعبدون غير الله – عز وجل – ولما وقع فى يدها نادت فى قومها بما حدث ﴿ **إنى ألقى إلي كتاب كريم** ﴾ ثم أجابت من غير أن تقطع كلامها بسؤالهم ﴿ **إنه من سليمان** ﴾ حيث توقعت سؤالا يبديه كلامها ..... وهذا من الحوار النفسى الذى تتفاعل فيه العقول بيانا لخطر الأمر وتنبيها على خطبه ، وهذا من دلائل الاستئناف البيانى .

ثم توقعت سؤالا آخر " وما يريد سليمان " فأجابت بقراءة البيان الحاسم الذى جاءها فى أوجز عبارة وأبلغ بيان يشتمل على النهى عن التعالى والأمر بالإتيان ﴿ **ألا تعلوا على** ﴾ بصيغة التنبيه التى تعد مقدمة للأمر الشديد ﴿ **وائتونى مسلمين** ﴾ حيث قيد الإتيان بـ (الإسلام) تحذيرا من الاغترار بما يملكون أو محاولة التعرض لحربه أو مهادنته ، ولذلك لما أرسلت إليهم الهدية اشتد توعده كما يأتى .....

وهذا إعلام صريح بخصوصية دعوته ، وكأنه يحملها مسئولية التعالى – لو حدث – ولذا وقعت فى شدة من أمرها ، ومن ثم بدأ حوارها مع الملأ من قومها .

حوار الملكة مع الملأ من قومها

بعد أن وضعت فى هذا الموقف الشديد وهى تعلم نفاسة الكتاب وعظمة صاحبه وقوة جنده نادت نداء المتلهف المتحير كما حكى القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ قالت يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون قالوا نحن أولو قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين . قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون وإنى مرسلة إليهم بهديه فناظرة بما يرجع المرسلون ﴾ الآية ٣٢ : ٣٥ .

أبدت فى حوارها هذا الضعف أمام الأمر ، واستضعاف الملأ وبيان ثقل الأمر ومشقة التكليف ، بعد أن مست كلمات الكتاب عقلها ، وفطنت ما فيها من الصرامة التى تشعر ببالغ الإنذار ، وأن المتحدث أعلى وأمكن منها وجنوده أقوى من جنودها ففيهم الجن ، وهى خفية وفيهم الطير التى أخبرت بشأنها وقومها .....

ومن ثم استفتت فى الأمر ، وهى من هى بين قومها والتمست الإجابة والتكرم ببيان الموقف من هذا الكتاب ولم يقف طلبها عند حد المشورة كما قال المفسرون فى معنى الآية " أشيروا على " وإنما أرادت بيان الحال والشأن بقطع القول فيه . كما ورد فى قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون** ﴾ يوسف ٤٣ .

وقوله تعالى فى نفس القصة أيضا ﴿ **يوسف أيها الصديق أفتنا** ..﴾ يوسف ٤٦ . فالمعنى هنا على التكرم بالإجابة القاطعة ، وليست المشورة كما ذهب كثير من علماء التفسير .

وهكذا شأن الملكة وقد ألبسها كتاب الملك بعد أن قرأته لباس الحيرة التى قطعت معها سبل التفكير ، ففزعت إلى الملأ من قومها بهذا النداء المثير ،

وهم الذين حولوا الطلب إلى مشورة حين قالوا : ﴿ **نحن أولوا قوة وألوا بأس شديد والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين** ﴾ أى هذا موقفنا ورأينا وأشيرى علينا ونحن طوع أمرك .

ولم يرد هذا الطلب " أفتونى " فى غير القصتين ، قصة يوسف ، وقصة هذه الملكة .

وتقديم النداء على الأمر يشعر بخطبه وشأوه ، والأمر هو " الحال المهم وإضافته إلى ضميرها (أمرى) لأنها المخاطبة بكتاب سليمان ، والمضطلعة بما يجب إجراؤه من شئون المملكة ، وعليها تبعة الخطأ فى المنهج الذى تسلكه من السياسة ..... وقد أفادت هذه الإضافة تعريفا أى فى الحادثة المعينة "[1].

أما قولها : ﴿ **ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون** ﴾ فهذا فيه إجلال للقوم بالإضافة إلى حسن الأدب الداعى إلى المشاركة الخالصة ، بحيث يكون الرأى خالصا لا مهادنة فيه ولا رياء .

ولذلك بادلوها حسن الأدب نظير موقفها معهم ولجوؤها إليهم ، فأبدوا ما عندهم من عدة وعتاد وقوة وبأس شديد ، ومع كل ذلك ﴿ **والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين** ﴾ .

فعليها أن تختار الحرب أو السلم ، وعلمها بأمور الملك وجنودها يدعوها إلى الانقياد ، ولكنها لا تريده من أول وهلة كى لا تتهم بالضعف والاستسلام وقد أبدوا لها استعدادهم للحرب والدفاع عن مملكتهم وكيانهم

---

(١) ينظر التحرير والتنوير ١٩/٢٦٣ .

لذلك بدأت بالمحاولات ، وهى جانب من جوانب السلم ، ولم تقطع برأيها حينئذ ، بل ذكرت لهم شأن الملوك إذا حاربوا ، أرادت بذلك إقناعهم برأيها الذى سيأتى بعد هذه المحاولات ، لأنها تفضل جانب السلم فى قرارة نفسها ، دون أن تفقد المشورة وقد بينت أنها دأبها ، وصفة لا تنفك عنها لذلك عبرت بـ (كنت) ﴿ **ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون** ﴾ أى تحضرون من شهد بمعنى حضر .

المهم أنها لم تبين لهم الاستبداد بالرأى ، وإنما أرادت أن يقبل عن بينة واقتناع ، فشرحت موقف الملوك ﴿ **قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون** ﴾ .

أشعرت القوم بحصافة رأيها وخبرتها الزائدة عنهم فى الحياة حيث ذكرت شأن الملوك مطلقا ، إذا دخلوا قرية أفسدوا نظامها ، وبدلوا قوانينها وأنزلوا بها النهب والتخريب إذا كان دخولهم عنوة وقهرا ، هذا أمر ، والأمر الآخر " وجعلوا أعزة أهلها أذلة بإزالة سلطانهم ، ولذلك نصت على (الأعزة) وإذا ذل الأعزاء فلا عز لغيرهم .

ثم ركزت هذا المعنى فى نفوسهم حين أعادت هذا البيان وأذاعته ثانية فى صورة التأكيد بقولها ﴿ **وكذلك يفعلون** ﴾ .

أى ذاك دأب الملوك ، وهذا تذييل يقرر ما يدور فى نفسها ويؤكده ، وهو الميل إلى السلم بعد استشعارها منهم الميل إلى الحرب واعتدادهم بقوتهم المادية ، وجملة التذييل تؤكد ما قبلها منطوقا أو مفهوما .

وهذه الجملة : " استدلال على المستقبل بحكم الماضى على طريقة الاستصحاب وهو كالنتيجة للتدليل الذى فى قولها (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها) والإشارة إلى المذكور من الإفساد وجعل الأعزة أذلة أى فكيف نلقى بأيدينا إلى من لا يألوا إفسادا فى حالنا " .

وتلك طبيعة الحوار الأدبى الرفيع القائم على بينة وبصيرة يؤدى ثمرته عن اقتناع ، ويوحى بفكرته من الواقع المستمر لا يتجلى فيه الاستبداد والرأى ، أو الإكثار على أمر .

ولم تنته بعد مرحلة إقناعها وهى تحاور القوم ، بل أرادت أن تثبت لهم موقفها بالتجربة ، فدبرت هذا الأمر : " وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون " .

هذه خطة الملكة ، أرسلت هدية عظيمة تناسب الملوك ، عسى أن تلين قلوبهم ، وتسلم من خطرهم ، " فإن قبلها فهو أمر الدنيا ووسائل الدنيا تجدى ، وإن لم يقبلها فهو أمر العقيدة الذى لا يصرفه عنه مال ولا عرض من أعراض هذه الأرض " [1].

وبعد هذه التجربة يكون القرار الأخير فى هذا الأمر ، والغرض من هذه الهدية أن يزداد القوم ثقة برأيها ، لذلك قالت " فناظرة " بصيغة اسم الفاعل الدالة على ترقبها المستمر مع ثقتها بالقبول ولذلك أجاز بعض العلماء أن يكون من النظر العقلى أى عالمة [2].

---

(١) ينظر فى ظلال القرآن ٥/٢٦٤٠ .

(٢) ينظر التحرير والتنوير ١٩/٢٦٧ .

وقال الفخر الرازى " قولها فناظرة بم يرجع المرسلون " فيه دلالة على أنها لم تثق بالقبول ، وجوزت الرد ، وأرادت بذلك أن ينكشف لها غرض سليمان " [1].

موقف النبى من تدبير الملكة

ما كان من هذه التجربة إلا أن ازداد الأمر شدة وبرزت صورة التهديد والوعيد التى كانت مضمرة في ثنايا الكتاب ﴿ **ألا تعلوا على وائتونى مسلمين** ﴾ ، وأضيف إليها تحقيرهم ، وهوانهم هوانا لا يفارقهم إن استمروا على عدم الاستجابة .

تجلى ذلك فى حوار سليمان – عليه السلام – مع الرسل الذين جاءوا بالهدية .

قال تعالى : ﴿ **فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال . فما آتانى الله خير مما أتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون** ﴾ الآية ٣٦ : ٣٧ .

هذا هو موقف النبى ، كأنه قال لهم حين ذهبوا إليه ما خطبكم أيها المرسلون ؟ قالوا أرسلتنا الملكة بهدية ..... فبنى جوابه على عدة أمور هى :

١ – الاستفهام الإنكارى ، الدال على أن هذا عرض تافه رخيص يحاولون به صرفه عن غرضه الشرعى الذى أمرهم به .

---

(١) تفسيره ٢٤/١٩٦ .

٢- الإخبار بعطاء الله له وكأنهم لا يعلمونه .

٣- وأنه ممن لا يهشون لمثل هذه الأمور ، بل هذا طبعكم لأنكم غير متصلين بالله عز وجل .

٤- والإضراب عما ذكر من إنكار الإمداد ببيان اهتمامهم بأمر الدنيا

٥- والأمر بالرجوع الذى يطوى بالغ الإنذار بالمصير المرهوب .

٦- والقسم الدال على نفور من فعلهم وشدة انفعاله بصنيعهم (فلنأتينهم) أى فوالله لنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون .

ولم تذكر كلمة (الهدية) فى القرآن الكريم فى غير هذا الموقف .

وكذلك أسلوب الإنذار والتهديد بهذه الطريقة من قبل البشر ، أسلوب فريد ﴿ **لا قبل لهم بها** ﴾ أى لا طاقة لهم على استقبالها ودفعها .

وهذه حقيقة لا مبالغة فيها ، لأن الله سخر له من الجنود ما لم يسخر لغيره ، كما أن الريح تجرى بأمره .....

وكذلك الشأن فى قوله : ﴿ **ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون** ﴾

ورد ذكر الصغار فى القرآن الكريم فى أربعة مواقف هى :

١- قوله ﴿ ... **فاخرج إنك من الصاغرين** ﴾ الأعراف ١٣ .

٢- قوله ﴿ **فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين** ﴾ الأعراف ١٩ .

٣- قوله ﴿ **حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون** ﴾ التوبة ٢٩ .

٤- وهذه الآية موطن دراستنا .

ولم يجتمع الصغار مع الذلة فى غير هذا الموقف ، الدال على قمة الوعيد وأنهم سيلحقون بهم أسرا لا يفارقهم إلى يوم التناد .

والسبب فى ذلك أنه – عليه السلام – أراد أن يرهب بأمرين هما (الذل والصغار) والذل (ما كان عن قهر ، والصغار : الرضا بالمنزلة الدنية)[1].

فالمراد : أن يذهب عنهم ما كانوا فيه من العز والملك ، وأن يقعوا فى أسر واستعباد ، ولا يقتصر بهم على أن يرجعوا سوقة بعد أن كانوا ملوكا ....[2].

لذلك جاء التعبير ﴿ **وهم صاغرون** ﴾ بتقديم المسند إليه على الخبر (اسم الفاعل) نظرا لشأن الخبر الذى ينبههم قمة التنبيه لبيان شأنهم وحالتهم إن لم يستجيبوا لدعوته ويكفوا عن هذه المماطلات .

ثم طوى السياق بعد ذلك موقف الملكة بعد عودة رسلها محملين بهذا الإنذار والوعيد ، وتأهبها لتلبية الأمر الذى لا محيص عنه .

وسر هذا الإيجاز تيقن سليمان – عليه السلام – من إذعانها ، وعدم ترددها تارة أخرى ، وأن هذا هو قرارها الأخير ، الذى بنته على الموقف من إرسال الهدية ، حيث أبانت أنها لا تريد الحرب ، وأنها تعلم بأس الملوك إذا أرادوا القهر ، ومن ثم انصرف السياق فجأة إلى قضية الإتيان بعرشها قبل إتيانها وقومها مسلمين .

---

(١) ينظر المفردات (ذل – صغر) .

(٢) ينظر الكشاف ١٤٨/٣ .

الحوار فى قصة إتيان العرش

موضوعه : إثبات الإعجاز الإلهى الذى اختصه ا لله به ، أراد سليمان – عليه السلام – أن يثبت لها شيئا مما اختصه ا لله به من الأمور الخارقة لتيقن لها فعلا أنها وجنودها لا قبل لهم بسليمان وجنوده ، فكان هذا الأمر الخارج عن مألوف البشر " الإتيان بالعرش " .

بنى الحوار فيه على ثقة لا مرية فيها ، بدأ بخطاب سليمان – عليه السلام – لملئه ، ثم دار بينه وبين عفريت من الجن على القول بأن سليمان هو المعنى بقوله : ﴿ **الذى عنده علم الكتاب** ﴾ .

يتجلى ذلك فى قوله سبحانه : ﴿ **قال يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين قال عفريت من الجن أنا آتيك بها قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك . فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم** ﴾ الآية ٣٨ : ٤٠ .

الغرض من الإتيان بالعرش هو إبراز الخارقة ، وبيان العطاء الذى لا يملكونه ﴿ **فما آتانى الله خير مما أتاكم** ﴾ .

ومن ثم صارت الخارقة أمرا يشبه المألوف حيث دلت سهولة التعبير على يسر التحقيق قال : ﴿ **أيكم يأتينى بعرشها** ﴾ فقوله : ﴿ **أيكم** ﴾ دليل الإمكان والمراد تحديد من يقوم بهذه المهمة على وجه السرعة ﴿ **قبل أن يأتونى مسلمين** ﴾ .

فتصدر لها عات من عتاة الجن المسخرين له ، يثق فى قوة نفسه وتحقيق أمانته ، ولكن الزمن مبهم ﴿ **قبل أن تقوم من مقامك** ﴾ أى من مجلسك الذى تجلس فيه للحكم والقضاء .

" قيل كان هذا الوقت من الصبح إلى الظهر "[1] فقد يكون ذلك قبله بساعة أو ساعتين أو أكثر أو أقل ..... فاستبطأ سليمان الزمن ، وحكى القرآن القصة بطريق الحوار ﴿ **قال الذى عنده علم الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك** ﴾ دون أن يصرح باسمه واكتفى بتخصيصه بالصلة ﴿ **الذى عنده علم من الكتاب** ﴾ للدلالة على شرف العلم الذى حباه الله – عز وجل – به حين قال فى بدء القصة ﴿ **ولقد آتينا داود وسليمان علما** ﴾ وأن هذه الخارقة كانت بسبب العلم ، وأنه يتأتى بالعلم والحكمة ما لا يتأتى بغيرهما .

ولا توصل " الذى " إلا بجملة من الكلام قد سبق من السامع علم بها ، لذلك قيل إنه اجتلب ليتوصل به إلى وصف المعارف بالجمل "[2].

وبداية القصة – كما سبق – تشير إلى أن الذى عنده من العلم ما ليس عند أحد من أمته هو سليمان – عليه السلام – لأن الله أتاه حينئذ خصوصيات ليست لأحد من أمته لذلك قال سبحانه ﴿ **ولقد آتينا داود وسليمان علما** ﴾ . ﴿ **علما** ﴾ بالتنكير الدال على عظمته ، وأنه لا يعلم كنهه

---

(١) ينظر روح المعانى للألوسى ١٩/٢٠٢ .

(٢) ينظر دلائل الإعجاز ٢٠٠ .

إلا ا لله وليس بعيد أن تتحقق بسببه الخوارق .

وقوله ﴿ **قبل أن يرتد إليك طرفك** ﴾ على حقيقته لأن المسألة مسألة إعجاز ، وليست كناية عن سرعة الوقت كما قال بعض المفسرين .

وكان هذا هو سر السؤال ﴿ **أيكم يأتينى بعرشها** ..... ﴾ ؟ لبيان أنه يملك بفضل ا لله ما لا يملكه غيره .

ولما تحققت المعجزة على يديه ، ورآه مستقرا عنده ، أبان أنه لا حول له فى ذلك ولا طول ، فقال ﴿ **هذا من فضل ربى** ﴾ .

والفضل هنا فيه معنى التخصيص الذاتى ، لذلك قالا عقب نعمة إيتاء العلم ﴿ **الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين** ..... **وأوتينا من كل شىء إن هذا لهو الفضل المبين** ﴾ وهنا أسند الفضل إلى ربه بالإضافة إلى ضميره ﴿ **هذا من فضل ربى** ﴾ إظهارا للتعظيم والخصوصية .

وكل ذلك يرجح أنه سليمان – عليه السلام – وليس كما قال بعض المفسرين إنه آصف بن برخيا أو الخضر أو رجل من أهل الحكمة .... الخ الأقوال الكثيرة التى لا دليل عليها .

ويحقق ذلك أيضا : تكرار العندية على التمكين بما وهبه ا لله ، وفضله به من الخوارق ﴿ **قال الذى عنده علم من الكتاب** ﴾ ، و ﴿ **فلما رآه مستقرا عنده** ﴾ ولم يقل استقر بين يدى سليمان .....

وعلل هذا الفضل ، وهذه الخصوصيات بالابتلاء ﴿ **ليبلونى أأشكر أم أكفر** ﴾ فيكون الابتداء حجة له أو عليه ﴿ **ومن شكر فإنما يشكر لنفسه**

ومن كفر فإن ربى غنى كريم ﴾ وهذا حث للمداومة على الشكر ، والإقرار بالفضل العميم .

وبعد أن استقر العرش عنده جاءت مرحلة إعداد الاختبار للملكة قبل مجيئها بتنكير عرشها ، وتغيير بعض أوصافه وملامحه ، اختبار يقابل اختبارها لسليمان ليرى رجاحة عقلها ، ونسبة الاهتداء عندها ، تلك التى تكون سببا فى هدايتها إلى الحق ورجوعها عن الشرك .

" قال نكروا لها عرشها أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون وهذا ضرب من الاستئناف البيانى جرى على طريق الحوار أيضا ولم ينص على السؤال بقولهم ؟ لماذا ننكر لها عرشها " ؟ لعدم قطع كلامه بكلام السامع ولقصد الإيجاز الذى تكثر به الفائدة ، وهو من بلاغة الحوار ، ﴿ فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين ﴾ الآية ٤١ : ٤٢ .

الحوار هنا بين سليمان وجنوده ، أمرهم بتنكير العرش وهذا فى وسعهم ثم علل الأمر وكأنه سئل عن سببه فقال " ننظر ... " .

والنظر له معان كثيرة ، منها تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشىء ورؤيته ، وقد يراد به التأمل والفحص ، وقد يراد به الإحسان كنظر الله إلى عباده ، وقد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص وهو الروية [1].

وهذا المعنى الأخير هو المراد هنا ، لأنه يقصد بيان معرفتها ، وطريقة

---

(١) المفردات (نظر) .

استدلالها على العرش بعد تنكيره وطريقتها فى الجواب وكل ذلك له دلائل فى نفسه يقف بها على سر إتيانها ، هل هو الخوف والرهبة أم الاقتناع بالدعوة بعد أن رأت ما رأت من أمر الهدهد والكتاب ورد الهدية .....

وقوله ﴿ **أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون** ﴾ أبلغ فى معرفة شأنها من قولنا أتهتدى أم لا تهتدى ، لأن المراد أتهتدى فتكون هدايتها دائمة ونافعة ، أم هى من هؤلاء المكابرين المطبوعين على عدم الاهتداء حتى لو عرفوا الحق ، فالإصرار على الطغيان دأبهم .

وهذا أيضا مؤشر لقوة الاختبار وأنه ليس مجرد سؤال يجاب عنه بنعم أو لا ، فالمراد من معرفة الهداية والسؤال عنها ، الهداية إلى الدين واستمرار ذلك ومن أجله كانت هذه المواقف من إرسال الكتاب ، وتنكير العرش بعد الإتيان به ، وإعداد الصرح الممرد من قوارير بعد ذلك وهذه طريقة الملك فى بناء البيان ، كما قال قبل ذلك فى شأن الهدهد ﴿ **سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين** ﴾ ولم يقل أم كذبت ، وكان هذا دليلا على الدقة فى التثبت والإعداد لأمر آخر ، وهو إرساله بالكتاب .

كذلك الشأن هنا اختبار يتلوه اختبار ، الأول يتعلق بالعرش لإثبات الإعجاز ، والثانى يتعلق بالصرح لإثبات ما وصلت إليه حضارته فلا تغتر بما عندها ، وتعلم صدق الملك حين رد الهدية وأشاد بعطاء الله وأنه خير مما آتاها وأنه عطاء عام كما قال ﴿ **وأوتينا من كل شئ** ﴾ مما يتعلق بأمور الدين والدنيا .

كما أن التعبير يومئ بترقب الجنود لشأنها ، وتطلعهم لبيان موقفها .

وسرعان ما جاءت وحان موعد الاختبار بشيء تركته وجندت له حرسا ..... لتضاءل لها قوتها ويكون ذلك دافعا إلى إقرارها بقدرة الله وعلمه وعطائه ، وأن ما عنده هو أمر الدنيا والآخرة ، وما عندها هو أمر الدنيا فقط

﴿ فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو ﴾

يلاحظ أنه فى الأمر بالتنكير جاء التعبير بالبناء للمعلوم **﴿ قالوا نكروا لها عرشها ﴾** وفى موطن الاختبار جاء بالبناء للمجهول **﴿ قيل أهكذا عرشك ﴾** و **﴿ قيل لها ادخلى الصرح ﴾** وذلك لأن الأول كان أمرا من سليمان دون غيره ، أما هنا فكان سؤالا يدور فى خلج الجميع ، فكلهم يترقب الموقف وينتظر الإجابة .....

وقد فاجأتهم بإجابة تدل على رساخة عقلها ، وثبات موقفها مشيرة إلى أنه غلب على ظنها أنه هو بعينه ، فقالت " كأنه هو " .

قال البقاعى : " وذلك يدل على ثبات كبير ، وفكر ثاقب ، ونظر ثابت وطبع منقاد لتجويز المعجزات والإذعان لها مع دهشة القدوم واشتغال الفكر بما دهمها من هيبته وعظيم أمره " [1].

وكان السؤال مبهما حيث لم يقل : أهذا عرشك ؟ لئلا يكون تلقينا ، فيفوت ما هو المقصود من الأمر بالتنكير من إبراز العرش فى معرض الإشكال

---

(١) نظم الدرر ٥/٤٢٨ .

والاشتباه [1] .

وقال الحسن بن الفضل : شبهوا عليها فشبهت عليهم ولو قالوا : هذا عرشك ، لقالت : نعم [2].

وقال مقاتل : عرفته ولكن شبهت عليهم كما شبهوا عليها ووقفت فى محل التوقف لئلا تكذب وذلك من كمال عقلها ، فقيل لها : إنه عرشك فما أغنى عنك إغلاق الأبواب وتسليط الحراس عليه [3].

وفرق ابن المنير بين التعبيرين " كأنه هو " و " هكذا هو " لأن هذا تشبيه وذاك تشبيه فلماذا آثرت ما قالته ؟

قال " كأنه هو " عبارة من قرب عنده الشبه حتى شكك نفسه فى التغاير بين الأمرين فكاد يقول هدهد ، وتلك حال بلقيس ، وأما هكذا هو فعبارة جازم بتغاير الأمرين حاكم بوقوع الشبه بينهما لا غير فلهذا عدلت إلى العبارة المذكورة فى التلاوة لمطابقتها لحالها وا لله أعلم [4].

والآن تبين موقفها ، وعرف أنها ممن يرجى هدايته وليست من الذين لا يهتدون بجحودهم وعنادهم .....

وبلاغة الحوار هنا تتجلى فى إثبات الحقائق بالأدلة القاطعة والبراهين

---

(١) ينظر الكشاف ٣/١٥٠ ، وروح المعانى ١٩/٢٠٦ .

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية ٤/٢٦١ .

(٣) حاشية زادة على تفسير البيضاوى ٣/٤٩٤ .

(٤) حاشية ابن المنير على الكاشف ٣/١٥٠ .

الساطعة ، وقد أثمر الاختبار ثمرته المرجوة الدالة على ترجيحها أمر الإعجاز ، وتلك مؤشرات الإيمان والإقرار بربوبيته الحق سبحانه التى تدور فى نفسها وتفصح عنها شيئا فشيئا بعد ذلك .

وأول بيان لما فى نفسها بعد هذا الاختبار بالأمر المعجز قولها ﴿ **وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين** ﴾ أى من قبل هذه الخارقة (الإتيان بالعرش)

واختلف العلماء فى نسبة هذا القول إليها ، فقالت بعضهم إنه من قبل سليمان وقومه إشادة بعطاء الله لهم ومنته عليهم بالإسلام قبلها .

ورأى بعضهم أنه من كلامها ، وهذا ما ارجحه ، لأنها أسلمت منذ أن اعتزمت الذهاب إلى سليمان – عليه السلام – بعد أن رد الهدية ، وبلغها المصير المرهوب ، واستبانت من مواقفه أنه يقصد الدين لا الدنيا .....

ولما حدث هذا الاختبار ، وأيقنت بأمر الإعجاز وتأييد الله لرسوله ، قالت " وأوتينا العلم " بنبوتك ، قبل ظهور هذه المعجزة ، بما شاهدناه من أمورك السابقة ولأن الموقف موقفها لبيان أمرها حينئذ ولا يستدعى الموقف أن يتحدث سليمان بعلمه وإسلامه فهذا مفروغ منه .

أما التعبير بنون العظمة (وأوتينا – وكنا) فهو جار على سنن تعبيرات الملوك ، وفيه تعظيم لأمر إسلامها وليس ذلك لإرادة نفسها ومن معها من قومها [1].

---

(١) ينظر روح المعانى ١٩/٢٠٧ .

وبعد ذلك صدر بيان من الحق سبحانه وتعالى بشأنها السابق وسبب إعراضها قبل ذلك فى قوله عز وجل :

﴿ **وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين** ﴾ الآية ٤٣.

أى راسخين فى الكفر ..... ارتبط الاختبار الأول ببيان الإعجاز ، كما سبق ، وهناك اختبار آخر يتعلق بشىء من العطاء الدنيوى ، ليثبت لها بالدليل المادى أن ا لله أتاه خيرا مما أتاها تصديقا لقوله لرسلها ﴿ **فما آتانى الله خير مما آتاكم** ﴾ من الحضارة العظيمة التى لا مثيل لها عندكم .

فكان غرض الاختبار والحوار هنا ، أنه جمع له بجانب العلم والحكمة والنبوة ..... شىء من زخارف الدنيا ، وأثر من آثارها البديعة .

بدأ هذا الحوار بداية كبدايته فى الاختبار الأول بالبناء للمجهول .

﴿ **قيل لها ادخلى الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين** ﴾ الآية ٤٤ .

قيل الآمر بالدخول هم جنود سليمان – عليه السلام – وقيل هم الذين كانوا فى رفقتها [1].

كأنه قيل ماذا حدث بعد الاختبار الأول ، فكان الجواب ﴿ **قيل لها ادخلى الصرح** ﴾ ولذلك لم يعطف الكلام ليتحقق المراد من أنها لازالت فى

---

(١) ينظر التحرير والتنوير ١٩/٢٧٤ .

مراحل التعرف على معالم الإعجاز ومعالم الحضارة البديعية التى تبرز قوة جنوده فتسترجع قوله لرسلها ﴿ فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ﴾ فتعلم أنها على الحق حين أذعنت وأسلمت ، فيدفعها ذلك إلى الإقرار بظلم نفسها فيما مضى من عبادتها لغير الله ، أو اختبارها سليمان بالهدية ، ثم تقر بإسلامها مع سليمان وأنها صارت فى معيته ، بعد أن بهرت بما رأته ، وكشف لها سليمان سر هذه المفاجأة بعد أن زعمته لجة ماء تخوض فيها فشمرت عن ساقيها ، فلما أخبرها سارعت إلى الله بهذه المناجاة ، لتيقنها أن كل ذلك من أجل الإسلام لله رب العالمين ، وليس الاستسلام لسليمان وجنوده خوفا منهم وبذلك تكون قد ختمت الموقف ببيان حقيقة إيمانها التى وصلت إليها بعد كد ومكابدة .

وبذلك نرى الحوار فى هذه المواقف (النملة – الهدهد – مواقف الملك مع جنوده ، ومع الملكة ، والملكة مع قومها .....) .

يكشف حقائق النفوس ، ويقوم على أسلوب الإقناع دون تعصب ، وتتجلى به الأغراض والأسس التى من أجلها دار الحوار دون تعارض أو تناقض فى القول .

وكذلك تتناسب فيه المعانى ، وكان له أثر فعال فى بيان الحرص على النفس والعقيدة الداعية إلى التثبت والتدليل على عطاء الله وخصوصيات الأنبياء .

ثانيا : الحوار فى قصة

سيدنا صالح – عليه السلام – مع قومه

غرضه الدعوة إلى عبادة الله – عز وجل وهذا هو موضوع مواقف الأنبياء مع أقوامهم بصفة عامة .

وهنا نلحظ أن سياق السورة الكريمة انتقل من ضروب الإعجاز فى موقف النملة والهدهد والإتيان بالعرش . إلى ضرب من العبرة والعظة التى يسلى بها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى استقبال قومه لدعوته ، ببيان مواقف الأمم من رسلهم .

وهناك ترابط بين ذكر قصة سليمان وملكة سبأ وقصة ثمود ورسولهم .

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور : " والانتقال من ذكر ملك سليمان وقصة ملكة سبأ إلى ذكر ثمود ورسولهم دون ذكر عاد لمناسبة جوار البلاد ، ولأن ديار ثمود كانت على تخوم مملكة سليمان وكانت فى طريق السائر من سبأ إلى فلسطين .

ألا ترى أنه عقب ذكر ثمود بذكر قوم لوط وهم أدنى إلى بلاد فلسطين فكان سياق هذه القصص مناسبا لسياق السائر من بلاد اليمن إلى فلسطين "[1].

قال تعالى : ﴿ **ولقد أرسلنا إلي ثمود أخاهم صالحا أن أعبدوا الله فإذا**

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧٧/١٩ .

هم فريقان يختصمون . قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون . قال اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون . وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون . قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون . ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين . فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ الآيات من ٤٥ : ٥٣ .

هنا نوعان من الحوار ، هما حوار الرسول مع قومه ، وحوار القوم مع أنفسهم .

أولا : حواره مع قومه

بدأ هذا الحوار بالأمر بعبادة ا لله الواحد الأحد لإنقاذهم من الشرك المؤدى إلى الهلاك ، وذلك هو سبب الإرسال ، فاختصموا ، وصاروا فريقين ، فريق آمن وفريق كفر ، وكل فريق يحتج على الآخر بأنه على الحق وغيره على الباطل .

ولما حدث منهم ذلك رجع إليهم بالقول على طريق المحاورة التى تهدى قلوبهم ، وتلين عريكتهم ، وتستنكر عليهم سوء تصرفهم باستعجالهم العذاب ، ثم يحضهم على الاستغفار ﴿ لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون ﴾ " تنبيها على الخطأ فيما قالوه ، وتجهيلا فيما اعتقدوه "[1] من أمر التطير حين

---

(١) ينظر الكشاف ١٥١/٣ .

راجعوه القول بما يدل على الخصومة واللدد وسوء الأدب فى قولهم ﴿ **قالوا اطيرنا بك وبمن معك** ﴾ أى تشاءمنا بسببكم فأصبنا بالضيق والشدة .

والإدغام فى قولهم (تطيرنا) يدل على غلظتهم وتمكن العداء من قلوبهم ، لأن إحكام اللفظ وفتله يدل على إحكام المعنى وتمكنه وهو قمة الإباء والفظاظة .....

ولازال هو يتسم بلطف القول وحسن المعاملة ﴿ **قال طائركم عند الله** ﴾ أى ما أصابكم ليس منى ولا بسببى ولكنه مقدر من الله بسبب أعمالكم ، وهو اختبار منه سبحانه ﴿ **بل أنتم قوم تفتنون** ﴾ .

قال بعض العلماء : " وهذا إضراب عن بيان طائرهم الذى هو مبدأ ما يحيق بهم إلى ذكر ما هو الداعى إليه " [1].

الفرق بين هذا الحوار والحوار السابق

يختلف الحوار هنا عنه فى القصة السابقة ، فقد رأيناه هناك قائما قائم على الحجة والبرهان والإقناع بالأدلة العلمية بين الهدهد وسليمان ، والملكة وقومها .. الخ ما سبق بيانه .

أما الحوار هنا ففيه هدوء وحسن أدب من جانب ، وتعصب وغلظة من جانب آخر ، فهو إلى الجدل أقرب ، لأن الحوار فيه مراجعة القول مع أدب وبعد عن المنازعة ، أما الجدل ففيه خصومة ومنازعة ، وسبق بيان ذلك فى

---

(١) ينظر حاشية زادة على البيضاوى ٣/٤٩٥ .

التمهيد وقد بدا هنا فى موقف ثمود التخاصم ، والتطير ، ثم التقاسم على إهلاكه وأهله ..... فى الحوار الذى دار بين القوم وبعضهم .....

ثانيا : حوار القوم مع أنفسهم

جاء ذلك فى حكاية الحق سبحانه وتعالى موقفهم ﴿ **وكان فى المدينة** [1] **تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون** ﴾ .

تخاصموا فلاطفهم القول ، وتطيروا فبين لهم الحق فما بقى لهم بعد ذلك من العناد والإصرار إلا التآمر على إضمار الشر وتدبير المكيدة .

وهؤلاء الرهط من عتاة القوم : ﴿ **يفسدون فى الأرض ولا يصلحون** ﴾ وهذا العطف " ولا يصلحون " ضرب من التتميم ، للدلالة على أنهم تمحضوا للإفساد ، ولم يكونوا ممن خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا .....

كان قولهم فى هذا الحوار " تقاسموا با لله ..... " أى كل واحد منهم يأمر الآخر بذلك ويطلبه منه . والقسم با لله ، يدل على أنهم كانوا يعترفون با لله ، ولكنهم يشركون به الآلهة .....

وجواب القسم " لنبيتنه وأهله ..... " أى نقصده ليلا .

قال الراغب : " والبيات والتبييت : قصد العدو ليلا "

---

(١) المدينة : حجر ثمود المعروف مكانة اليوم بديار ثمود ومدائن صالح وهى بقايا تلك المدينة من أطلال وتوجد بين المدينة المنورة وتبوك ينظر التحرير والتنوير ١٩/٢٨٢

قال تعالى : ﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون ﴾[1].

وقيل تحالفوا على أن يأتوا داره ليلا فيقتلوه وأهله المختصين به ، فأتوا واختفوا فى غار قريب من داره ، فانحدرت عليهم صخرة شدختهم جميعا [2].

وبناء على هذا الغدر ، وإنكارهم مشاهدة الهلاك وتأكيد صدقهم ، بناء على كل هذا التآمر فى الخفاء كانت عاقبة المكر التى جعلتهم عبرة ومثلا ﴿ فانظر كيف كانت عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ﴾ والدليل على ذلك ﴿ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ .

وترددت هذه القصة فى أكثر من سورة ، وكل مشهد له خصائصه ، ورد منها مشاهد فى الأعراف وهود والشعراء ، وذلك لكثرة دعوة نبيهم وإنذارهم بالعاقبة والعذاب ، وعدم استجابتهم له .....

وكل مشهد يحكى واقعا كان ، ففى الأعراف والشعراء يذكرهم بآلاء الله ، ويقص إيمان المستضعفين وكفر المتكبرين ، وعتوهم عن أمر ربهم .....

وكانت العاقبة ﴿ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين ﴾ تنظر آيات سورة الأعراف ٧٣ : ٧٩ ، والشعراء من ١٤٢ : ١٥٩ .

وفى سورة هود دعاهم إلى عبادة الله أيضا ، مذكرا بنشأتهم من الأرض

---

(١) المفردات (بيت)

(٢) المحرر الوجيز ٤/٢٦٤ .

واستعمارهم فيها ، ومقابلتهم ذلك بالشك فى دعوته ﴿ **قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب** ﴾ ، ولم يذعنوا لأمره أيضا فنجاه الله ومن معه وأهلكهم بالصيحة ﴿ **فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ إن ربك هو القوى العزيز وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين** ﴾ ينظر آيات سورة هود من ٦١ : ٦٨ .

ذكر هناك الرجفة وهنا الصيحة ، وحيث ذكر الرجفة وهى الزلزلة وحد الدار ، وحيث ذكر الصيحة جمع ، لأن الصيحة كانت من السماء ، فبلوغها أكثر وأبلغ من الزلزلة فاتصل كل واحد بما هو لائق [1]. وهذه دقة فى النظم القرآنى البديع الذى لا يجارى .

ومشاهد القصة فى كل موطن لها خصوصيات ، فهنا مثلا فى سورة النمل لم يذكر مشهد الناقة وعقرهم إياها ، وذكر موضوع التطير ، وتبييت الرهط ومكرهم به .

وهذه المشاهد من القصة لم تذكر فى غير سورة النمل شأنها شأن مواقف سليمان ، التى لم تذكر فى غير هذه السورة ، وهذا من خصوصيات السورة فى انفراد مشاهد قصصها .

وهكذا يختلف الحوار فى هذه القصة عنه فى القصص السابقة فى السورة ذاتها ، فيأخذ هنا طابع التخاصم والتنازع فيكون جدالا .....

---

(١) ينظر أسرار التكرار للكرمالى ٨٥ تحقيق عبد القادر عطا .

وبقى لنا بعد ذلك من هذه الدراسة أن ننظر فى قصة لوط – عليه السلام – فى هذه السورة مع قومه .

ثالثا : الحوار فى قصة

لوط – عليه السلام – مع قومه

تعقيب قصة ثمود بقصة قوم لوط جار على معتاد القرآن فى ترتيب قصص هذه الأمم ، فإن قوم لوط كانوا متأخرين فى الزمن عن ثمود ومناسبة ذلك هى مجاورة ديار قوم لوط لمملكة سليمان ، ووقوعها بين ديار ثمود وبين فلسطين ، وكانت ديارهم ممر قريش إلى بلاد الشام ، قال تعالى : ﴿ **وإنها لبسبيل مقيم** ﴾ الحجر ٧٦ .

وقال تعالى : ﴿ **وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون** ﴾ الصافات ١٣٧ ، ١٣٨ [1].

وجاء هذا التعاقب فى الأعراف والنمل والشعراء مع اختلاف العبارات المؤدى لاختلاف المواقف ، ومراجعته لقومه مرات ، حرصا على إجابة الدعوة غير أنه حوار واحد بنى على الإنكار والتوبيخ من جانبه بسبب أفعالهم المتناهية فى القبح وهم يعلمون .

ومقابلتهم هذا التنبيه والتوبيخ بالتمادى فى المنكر ، والأمر بإخراج آل لوط من قريتهم بسبب تطهرهم وتنزههم عن أفعالهم الخبيثة ، مما يجعله من

---

(١) ينظر التحرير والتنوير ٢٨٧/١٩ .

جانبهم جدالا كالحوار السابق فى مواقف ثمود .

وذلك فى قوله سبحانه ﴿ **ولوطا إذا قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون فما كان جواب قومه إلا أنهم قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون فانجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين** ﴾ الآيات من ٥٤ : ٥٨ .

لما بالغ فى الإنكار عليهم وزاد فى تقريعهم بقوله ﴿ **وأنتم تبصرون** ﴾ أى تعلمون علم اليقين بسوء ما تعلمون ، ثم عين الفاحشة زيادة فى قبحها ، وعللها بقوله " شهوة " تنزيلا لهم إلى رتبة البهائم التى ليس فيها قصد ولد ، وعفاف ، وقال : ﴿ **من دون النساء** ﴾ إشارة إلى أنهم أساءوا من الطرفين فى الفعل والترك [1].

ثم أضرب عن ذلك إلى رميهم بالجهل ﴿ **بل أنتم قوم تجهلون** ﴾ أى تفعلون فعل الجاهلين ، مع علمكم بأنها فاحشة ، أو تجهلون العاقبة ، أو هو من الجهل بمعنى السفه [2].

وحالتهم تحتمل كل هذه الأمور ، وفى الأعراف قال : ﴿ **بل أنتم قوم مسرفون** ﴾ الآية ٨١ وكل إسراف جهل ، فهى مواقف يكمل بعضها بعضا.

وهذا القول أحاط بهم من كل جانب فأبان تعمدهم الخسة والقباحة

---

(١) ينظر الفتوحات الإلهية ٣/٣٢٠ .

(٢) ينظر الكشاف ٣/١٥٣ .

والسفاهة ، والمنزلة الدنية مما أعياهم عن الجواب أو الدفاع عن موقفهم ، فلم يجدوا إلا أن يقولوا ﴿ **أخرجوا آل لوط من قريتكم** ﴾ .

ويعللون هذا الإخراج بما يحقق سفاهتهم وجهالتهم التى رماهم بها ﴿ **إنهم أناس يتطهرون** ﴾ .

هذا تعليل للأمر بالخروج ، جاء على سبيل التهكم ، أى يتطهرون عن أفعالنا ، ويعدونها قبيحة .

والتعبير بقوله " أناس " يقابل تنزيله إياهم إلى رتبة البهائم وهم يقولونه سخرية أيضا ، سخر ا لله منهم وأمدهم فى طغيانهم يعمهون .

ثم نجاه ا لله وأهله ، وألحق بهم العذاب ما لا يتوقعونه وجعلهم عبرة ومثلا .

ولما كانت هذه القصص مليئة بالعبر والأخبار الدالة على قدرة ا لله – عز وجل – وعطائه الذى لا ينفد ، ومعجزاته القاهرة الدالة على صدق الأنبياء ، وتأييدهم .....

لما كان الأمر كذلك جاء التعقيب على هذه القصص بخطاب الحق سبحانه لرسوله – صلى ا لله عليه وسلم – " **قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون** " .

ثم بدأ يعدد نعمه الدالة على قدرته والداعية إلى تفرده بالحمد والجلال .

ومع كل نعمه يذكر بألوهيته بطريق التقرير بها وإنكار أن يكون معه إله

﴿ أأله مع الله ﴾ ثم يضرب فى كل مرة عن تصرفهم وظلمهم ﴿ بل هم قوم يعدلون ﴾ ، أو جهلهم ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ ..... الخ هذا البيان الذى يجلى نعمه ، وينكر مواقف المكذبين لها .

ثم تختم هذه المواقف ببيان تسلية النبى - صلى الله عليه وسلم - ﴿ ولا تحزن عليهم ولا تكن فى ضيق مما يمكرون ﴾ الآية ٧٠ ، ثم يذكر بعد ذلك بقدرة الله وعلمه .....

وهكذا أمر الحق سبحانه فى خاتمة هذه القصص بقوله : ﴿ قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ﴾ وبعد بيان هذه المواقف الدالة على جلالته وقدرته ..... تختم السورة بقوله : ﴿ وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ .

وهذا الختام يدل على أن ما شتملت عليه السورة من قصص إنما هو من آيات الله سبحانه .

وهكذا يتناسق ختام السورة مع مطلعها المنوه بهذه الآيات فى قوله سبحانه : ﴿ طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين ﴾ .

وهذه المشاهد هى الآيات التى بنيت عليها السورة ، وأدى الحوار فيها مهمته بإيقاعه المؤثر الذى يحرك العقول ويجعلها تنفعل وتتأثر بالمواقف والأحداث ، وتتنبه للحقائق ، وتصل إلى الثمرة المرجوة بالبرهان ، كما رأينا فى مواقف النملة والهدهد وملكة سبأ .....

وبطريق المخاصمة وإظهار دواخل النفوس بمنازعة ومغالطة كما فى مواقف ثمود وقوم لوط .

وكل هذه المواقف تتعانق فى إثبات قدرة الله – عز وجل – وتصوير حالة المكذبين الضالين تثبيتا وتسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل .

أهم المصادر والمراجع

(١) أساس البلاغة للزمخشرى دار المعرفة .

(٢) إعجاز القرآن للباقلانى دار المعارف .

(٣) البرهان فى توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان للكرمانى تحقيق عبد القادر عطا دار الاعتصام .

(٤) التحرير والتنوير للأستاذ محمد الطاهر بن عاشور الدار التونسية .

(٥) تفسير الفخر الرازى دار الفكر .

(٦) حاشية محى الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوى دار إحياء التراث العربى بيروت لبنان .

(٧) الدر المصون فى علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبى دار الكتب العلمية

(٨) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجانى تحقيق الشيخ محمود شاكر .

(٩) روح المعانى للألوسى .

(١٠) الفتوحات الإلهية (حاشية الجمل) على الجلالين .

(١١) فى ظلال القرآن للشيخ سيد قطب .

(١٢) القاموس المحيط للفيروزابادى .

(١٣) الكشاف للزمخشرى .

(١٤) لسان العرب لابن منظور .

(١٥) المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز لابن عطية دار الكتب العلمية .

(١٦) المعجم المفصل فى الأدب د/ محمد التونجى دار الكتب العلمية .

(١٧) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم محمد فؤاد عبد الباقى .

(١٨) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى .

(١٩) مقاييس اللغة لابن فارس .

(٢٠) النبأ العظيم د/ محمد عبد الله دراز دار القلم بالكويت .

(٢١) نظم الدرر للبقاعى دار الكتب العلمية .